المنجزات المعمارية للباي محمد الكبير في مدينة وهران

أ. علي بوتشيشة*

مقدمة: لقد خلفت لنا الفترة العثمانية الكثير من الآثار المعمارية وفي مختلف مدن الجزائر، وتركت بصماتها واضحة جلية على المباني المشيدة فيها خصوصا الدينية والمدنية منها. ونكاد نجزم أن ما خلفته هذه الفترة من العمائر يفوق كثيرا ما خلفته لنا الفترات التي سبقت، فمدينة الجزائر لوحدها مازالت تحتفظ بالعديد من المساجد والزوايا والأضرحة، إلى جانب العشرات من القصور والدور والحمامات وغيرها، كما لازالت مدن أخرى تحتفظ إلى الآن بمعالم دينية ومدنية كثيرة على غرار قسنطينة ووهران ومعسكر ومستغانم. ومما يلاحظ لأول وهلة على هذه المعالم جميعها هو ذلك التمازج الواضح بين الطابع المحلي والطراز العثماني الوافد في الجانبين المعماري والفني والذي جعلها تتفرد بمميزات خاصة.

وللعلم فإن هذه المنجزات مازال الطابع الأصلي للبناء فيها شاهدا على مرحلة من مراحل البناء الحضاري التي مرت بها بلادنا، فهي تعتبر بالتالي إرثا معماريا وفنيا، ورصيدا حضاريا يجب دراسته والمحافظة عليه، لاسيما إذا علمنا أن الكثير من هذه المعالم في حالة متقدمة من التدهور.

ومن بين أهم هذه المنشآت المعمارية تلك الموجودة في وهران والتي يعود تشييدها لأحد أبرز بايات الجزائر وواحد من الشخصيات التي حفل بها تاريخ بلادنا، سجل حضوره القوي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وارتبط اسمه بتحرير وهران من الاحتلال الإسباني؛ إنه الباي محمد بن عثمان الكبير، الكبير بفتح وهران والكبير أيضا بمنجزاته المعمارية العظيمة.

ولد الباي محمد الكبير بمليانة في أواخر الثلاثينات من القرن الثامن عشر على الأرجح، كان والده عثمان الكردي حاكما لتلك المدينة، ثم صار بايا بتيطري[1]، وعقب مقتل والده تكفل به أبو إسحاق إبراهيم المليانى الذي ولي إدارة بايلك التيطري، وحين انتقاله لولاية بايليك الغرب أخذه معه[2] وهذا بعد أن زوجه ابنته، ونظرا لما كان يتمتع به محمد بن عثمان من خصال

*- أستاذ مساعد أ في الآثار الإسلامية- معهد الآثار- جامعة الجزائر2.

وصفات حميدة ومقدرة على الإدارة عينه صهره قائدا على قبائل فليتة[3] عام 1178هـ/1764م-1765م، واستمرت قيادته لها إلى غاية 1181هـ/1768م[4]. وفي ذات السنة رقاه الباي إبراهيم إلى منصب خليفة حيث أسندت له مهمة تسيير وإدارة شؤون الرعية المستقرة في القطاع الشرقي لبايليك الغرب، واتخذ مقره بمليانة. وفي تلك الأثناء شارك خليفة باي الغرب في صد الهجوم الاسباني البحري التي تعرضت له الجزائر على عهد الباشا محمد عثمان بقيادة الكونت أوريلي (O'Reilly) عام 1189هـ/1775م[5].

بعد وفاة الباي إبراهيم عام 1185هـ/1771م، خلفه في منصبه الحاج خليل، وعقب وفاة هذا الأخير الذي لم يستمر في الحكم إلا قليلا، عين الباشا محمد عثمان مكانه محمد بن عثمان وذلك في 20 جمادى الثانية عام 1193هـ / 5جويلية 1779م[6].

ومباشرة بعد تعيينه شرع الباي الجديد في إصلاحاته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فمعسكر التي كانت عاصمة بايليك الغرب قبل تحرير وهران بلغت أوج عظمتها وشهدت أزهى أيامها تحت حكم الباي محمد بن عثمان الذي مكث فيها إلى غاية عام 1206هـ/1792م وبها شيد المساجد والمدارس وأنشأ مختلف المرافق[7].

ويعتبر تحرير وهران والمرسى الكبير أعظم منجزات الباي العسكرية، فهذه المدينة كانت خاضعة للاحتلال الاسباني ما يقارب الثلاثة قرون، وبالرغم من أن الباي مصطفى المسراتي فتحها عام 1120هـ/1708م إلا أنها احتلت من جديد عام 1145هـ/1732م.

ولما تسلم الباي محمد الكبير بايليك الغرب شرع في محاربة الأسبان والتضييق عليهم ومحاصرتهم دون انقطاع، وفي محرم 1205هـ /أكتوبر 1790م وقع زلزال عنيف دمر أغلب المباني في مدينة وهران[8] فاستغل الباي حالة الفوضى والاضطراب التي عمت المدينة في مهاجمة الأسبان الذين رغم التعزيزات التي وصلتهم من اسبانيا اضطروا في الأخير إلى طلب الصلح ووقف القتال مستجيبين لمعظم شروط الجزائر[9].

بعد جلاء الأسبان عن وهران مباشرة، دخل الباي على رأس المجاهدين يوم الاثنين الخامس من رجب عام 1206هـ/29 فبراير 1792م[10] واتخذ وهران عاصمة لبايليكه، وحاول أن يعيد لهذه المدينة مجدها بعد أن كانت عبارة عن قلعة محصنة شبه مغلقة، وبذل جهودا معتبرة لتعميرها وإصلاح ما تخرب منها واستقدم إليها السكان من كل مكان.

توفى الباي محمد بن عثمان الكبير في قيطنة أولاد الخديم ببلاد صبيح بالشلف عام 1213هـ/1799م[11] عند عودته من الجزائر بعد أن أدى دنوشه. نقل جثمانه بعدها إلى وهران، حيث دفن بمدرسة خنق النطاح بأمر من ابنه وخليفته على القطاع الشرقي للبايليك عثمان بن محمد الذي ولاه حسن باشا بايا للغرب خلفا لأبيه[12].

لقد أنشأ وأصلح الباي محمد الكبير الكثير من المباني الدينية والمدنية والعسكرية[13] في معسكر وتلمسان ومستغانم والجزائر ومليانة والبرج. أما في مدينة وهران فقد بنى الجامع الأعظم المعروف بجامع الباشا وبنى بخنق النطاح مدرسة حولها إلى مسجد يعرف إلى اليوم باسمه وبنى بالمدينة القديمة جامعا المسمى حاليا باسمه كما بنى أيضا القصر المعروف باسمه وهو قصر الباي.

1- جامع حسن باشا: يقع على الضفة اليمنى لوادي الرحى عند شارع عمر بوتخيل (شارع فيليب سابقا) قبالة قصر الباي، شيده الباي محمد الكبير بأمر من الباشا حسن بعيد فتح وهران تخليدا لهذه الذكرى، وتوجد كتابة تذكارية تذكر تاريخ تأسيسه وتعطينا قائمة الحبوس الموقوفة على تسيير الجامع نقشت على لوحة رخامية محفوظة الآن بمتحف وهران أحمد زبانة. شرع في بناءه مباشرة بعد فتح وهران عام 1207هـ /1792-1793م وأشرف على أعمال البناء أمين البنائين محمد الشرشالي بن تدبيرت[14] وتم الانتهاء منه سنة 1210هـ/1796م. وعلى الرغم من الترميمات والتعديلات التي تعرض لها المبنى منذ إنشائه إلا أنه حافظ على طابعه الأصيل.

يمتد الجامع من الشرق إلى الغرب، تبرز منه للعيان واجهتان؛ الواجهة الغربية مشكلة من مستويين نظرا للانحدار الذي يتخذه الموقع، أما الواجهة الشمالية الشرقية فهي عبارة عن سور نصف دائري طوله 55م يزيد علوه كلما توجهنا نحو الغرب. يتخلل السور في منتصفه المدخل الرئيسي وهو عبارة عن مدخل تذكاري حظي -كما يبدو- بعناية المعماري واهتمامه، فواجهته الأمامية غنية بالزخارف المنتظمة حول عقد منكسر متجاوز محمول على عمودين مزدوجين يستندان على قاعدة مرتفعة.

نلج عبر المدخل مباشرة إلى حجرة شبه مربعة تتوسط رواقي الصحن لها بابين أخريين واحد غربي والثاني شرقي يفضيان إلى الرواقين، أما من الناحية الجنوبية للحجرة فتوجد شبه

شرفة تطل مباشرة على نافورة الصحن تكتنفها أربعة أعمدة رشيقة تحمل ثلاثة عقود ثلاثية الفصوص.

أما صحن الجامع فيأخذ شكلا نصف قرص تقدر مساحته بـ 397م^2 يوجد على جانبيه رواقان اثنان، يتكونان من عقود منكسرة متجاوزة. وقد زين الصحن – إضافة إلى النافورة الجميلة التي تكللها قبة مثمنة – بجنينتين صغيرتين.

ندخل بيت الصلاة عبر مدخل يقابل مباشرة حجرة المدخل الرئيسي مزدان بدعامتين مزخرفتين تعتمدان على قاعدتين عاليتين يتوجهما عقد نصف دائري ذو شراشف يعلوه شريط كتابي.

أما بيت الصلاة فيتخذ شكلا مربعا تقدر مساحته بـ 781م^2 تقوم في وسطه قبة مركزية عظيمة ثمانية الأضلاع يحيط بها من الجهات الأربع اثنتا عشرة قبة أصغر حجما، ونجد أسفل هذه القبة المركزية الدكة حيث يقوم المؤذن بإقامة الصلاة والمقرئ بترتيل القرآن الكريم، وهي مبنية من الخشب ذات درابزين مزخرف محمولة على أربعة أعمدة من الرخام. وقام سقف المسجد على مجموعة كبيرة من الحوامل، حيث وصل عدد الدعامات التي ترتكز عليها عقود منكسرة متجاوزة إلى 16 دعامة ذات مسقط ثماني، وقد استخدمت هذه الدعامات منفردة كما استخدمت جنبا إلى جنب مع الأعمدة. وقد وصل عدد الأعمدة داخل المسجد إلى 54عمودا من بينها 24 عمودا مزدوجا.

يتوسط جدار القبلة المحراب الذي حافظ على الكثير من أصالته، يتكون من حنية غائرة خماسية الأضلاع يكتنفها عمودان رخاميان، تعلوها قبيبة.

والمؤكد أن الزخرفة الأصلية للمحراب طمست واستبدلت بمربعات خزفية حديثة، ولم يبق منها إلا الشمسيات الثلاثة المخرمة التي تعلو إطاره والمصنوعة كما يبدو من مادة الجص.

ويتشابه محراب جامع الباشا في تكوينه المعماري بصفة خاصة مع المحاريب الزيانية والمرينية بتلمسان، هذه المحاريب التي تتخذ شكلا خماسي الأضلاع تغطيها قبيبة ويكتنف كل محراب عمودان ولا يبدو الاختلاف إلا في شكل العقد والزخرفة[15].

وكان الهدف من عمل المحراب المجوف يتمثل في دخول الإمام فيه للصلاة وفي تضخيم الصوت بالإضافة إلى تحديد اتجاه القبلة[16]، وعليه فإن السبب الوظيفي هو الذي يكون قد دفع المسلمين في صدر الإسلام إلى بناء المحاريب مجوفة[17].

مئذنة الجامع: تقوم في الركن الجنوبي الشرقي بعيدة بأمتار عن بيت الصلاة، ذات مسقط مثمن الشكل طول ضلع قاعدتها 1.4م ويبلغ ارتفاعها نحو 34م وهي بالتالي تعد ثاني أعلى مئذنة في الجزائر بعد مئذنة جامع المنصورة البالغ علوها 38م. نصل إلى داخلها عبر باب تواجهه نواة مركزية على هيئة دعامة شبه مربعة يلتف حولها درج صاعد عدد درجاته 147 درجة، نصل عبره إلى سطح البرج الرئيسي الذي يتوسطه جوسق المئذنة وهو ذو مسقط مثمن أوجهه الثمانية مزدانة في نصفها العلوي بشريط من المربعات الخزفية. غطي الجوسق بقبيبة ذات أخاديد ثبت في أعلاها وتد حديدي ذي ثلاث تفا فيح من البرونز ينتهي بهلال. تغطي أوجه البرج الرئيسي الثمانية زخارف متشابهة قوامها عناصر معمارية وهندسية بسيطة.

إن المئذنة تعتبر من أهم عناصر المسجد- إضافة إلى بيت الصلاة والصحن والمحراب- وتمثل دورها الأساسي عموما في النداء إلى الصلاة، وقد أعطت للمسجد طابعا جد مميز بل كان" لها معنى ومغزى أوسع من مجرد رمز للحضور، ونادرة جدا هي الحالات التي يخلو فيها مسجد من مئذنة"[18]، وتعد المئذنة الجزء الأكثر مقاومة في المساجد والأكثر اهتماما من طرف المعمار المسلم، حيث اختفت الكثير من المساجد واندثرت بينما ظلت مآذنها قائمة كما هو الحال بالنسبة لجوامع القلعة وأغادير والمنصورة[19] إضافة إلى جامع محمد بن عثمان الكبير بوهران.

2- مسجد الباي: يقع بعيدا إلى الشرق من جامع الباشا عند نهج طرابلس (لورون فوك سابقا) شارع الجيلالي داي فلاح، غير بعيد عن الواجهة البحرية، في المكان المسمى قديما خنق النطاح. تحيطه العمارات من ثلاث جوانب، بناه الباي عام 1207هـ/1793م ليكون مدرسة وضريحا له ولأفراد أسرته بعد وفاتهم. وقد أشار إلى ذلك الزياني- عرضا- قائلا: "...وبنى المدرسة العظيمة بخنق النطاح التي بها ضريحه وتعرف للآن بالمدرسة.."[20] حولها الباي عام 1208هـ/1794م إلى مسجد بعد أن انتقل إليها هربا من وباء الطاعون الذي أصاب وهران. غداة الاحتلال حول المسجد إلى حمام للقوات الغازية. ورغبة في شق طريق جديد هممت سلطات الاحتلال بهدمه، إلا أن احتجاجات السكان حالت دون هدمه، وقررت إدارة الاحتلال الإبقاء عليه كمعلم تاريخي وملكا عاما يستعمله المسلمون لأداء شعائر الصلاة كما كان سابقا[21].

يعتبر هذا المسجد أقل حجما من جامع الباشا على غرار العديد من المساجد التي تعود إلى الفترة العثمانية[22]. اختط على شكل شبه منحرف أقرب ما يكون إلى المستطيل تقدر مساحته بـ 265 م^2 ويبلغ ارتفاع حيطانه 5م وسمكها 0.5 م، ويتكون من أربع واجهات؛ الجنوبية منها

لها مدخلان، الأكبر يتوسط الحائط تقريبا، يبدو أنه أصلي، إلا أنه أحدثت به تغييرات مست شكله، أما الأصغر فيقع قريبا من الزاوية الجنوبية الغربية. تتوزع على طول الواجهة فتحات مستطيلة ضيقة تستعمل للإضاءة والتهوية. وتزدان الواجهة الغربية بعقود منكسرة متجاوزة مصمتة، فتح في أحدها باب يؤدي إلى الميضأة والتي تقع في الجهة المقابلة لجدار القبلة. أما الواجهة الشمالية فتشتمل على باب فتح في المدخل الأصلي المصمت الذي مازال يحتفظ بعقده المنكسر المتجاوز المرتكز على دعامتين، ويتوزع على طول الواجهة فتحات مستطيلة أيضا. وترتفع في الجنوب الشرقي المئذنة ويظهر إلى جانبها قبة الضريح وتسقيف الصحن.

بيت الصلاة والصحن: يضم بيت الصلاة حاليا إضافة إلى بيت الصلاة الأصلي الصحن والمجنبتين والمؤخر وهي العناصر التي اعتدنا رؤيتها في معظم المساجد منذ صدر الإسلام وإلى غاية الفترة الحديثة، أما بيت الصلاة الأصلي – كما نعتقد– فيتخذ شكلا مستطيلا عل غرار الكثير من مساجد الجزائر يبلغ عرضه 11.20م وعمقه 5.5م بينما يبلغ ارتفاعه 4م ندخله من ثلاث أبواب كما ذكرنا سابقا، يتكون من بلاطتين موازيتين لجدار القبلة وخمسة أساكيب عمودية، وهذه البوائك ذات عقود منكسرة متجاوزة تستند على أعمدة حجرية ضخمة ذات عقود منكسرة متجاوزة.

أما صحن المسجد فكان مكشوفا في الأصل، ثم غطي بعد الاستقلال بسقف لتفادي مياه الأمطار يأخذ شكلا مستطيلا عمقه 5.5م وعرضه 4.5م يكتنفه يمينا ويسارا مجنبتان تتشكل كلاهما من رواق واحد هو امتداد لأسكوب بيت الصلاة المتطرف، ويشرف كل رواق على الصحن ببائكة من عقدين. أما مؤخر المسجد فيتكون من رواق به باب مسدود في منتصف الحائط الغربي كان يفتح على الميضأة. والمعروف أن معظم مساجد الجزائر ذات مؤخر يتكون من رواق واحد أيضا كما هو الحال في مساجد القلعة والمنصورة وغيرها[23] ويشرف المسجد على الصحن ببائكة من ثلاث عقود. ونشير هنا أن واجهات الصحن الأربعة تنتهي في أعلاها بطنف بارز من القرميد نصف الأسطواني وضع بطريقة متراكبة.

وكان صحن المسجد النبوي مستطيلا عمقه أكبر من عرضه بعد التوسيعات[24] ومنه استوحت جميع المساجد الأولى الشكل العام لصحونها ومن ذلك المسجد الأموي بدمشق الذي تميز صحنه بالاستطالة حيث عرضه أكبر من عمقه.

أما صحن جامع القيروان فكان عمقه أكبر من عرضه، وفيما يخص مساجد المغرب الأوسط فإن صحونها المستطيلة جاء عرضها أكبر من عمقها[25].

وكان يحيط بالصحون في الغالب من جهتيها الشمالية والجنوبية أروقة تتكون من بلاطة وأكثر هي امتداد لبلاطات بيت الصلاة. ويمكن أن نسجل أن بعض المساجد احتوت على أكثر من صحن كما في مسجد حسن الموحدي بمراكش غير المكتمل[26]، إلا أنها حالات نادرة جدا. وفي المقابل خلت بعض المساجد ذات المساحة الصغيرة من أي صحن، كما خلت منه مساجد واسعة أخرى لاسيما في الفترة العثمانية.

قبة المسجد (الضريح): نصل إلى القبة عبر مدخل يفتح في منتصف جدار القبلة يعلوه عقد منكسر متجاوز. والقبة عبارة عن حجرة مربعة ترتفع قليلا عن بيت الصلاة مغطاة بقبة مثمنة الأضلاع محمولة على عقود مصمتة منكسرة متجاوزة ترتكز على أربعة دعامات مدمجة في الحائط. يوجد على يمين هذه الحجرة غرفة صغيرة يبدو أنها كانت تستعمل كمطبخ لوجود المدخنة، بينما يوجد على يسارها غرفة تستعمل حاليا كمكتبة خاصة بالإمام.

ومعلوم أن مسجد الباي بني أصلا ليكون مدرسة كما يتبين من النصوص التاريخية[27]، وأضيفت له القبة الضريحية ليدفن بداخلها الباي محمد الكبير وأفراد عائلته.

وقبة مسجد الباي لا تختلف في تخطيطها- كما يبدو- عن تصاميم القباب الضريحية التي وجدت ببلاد المغرب في عهوده السابقة، علما أن أقدم نموذج للعمارة الضريحية عبارة عن قاعة مربعة ذات قبة يفتح باب في واجهاتها الأربعة، هذا النمط يتردد في المغرب كما في المشرق.

وبالتطرق إلى المساجد الضريحية التي يمكن أن ندرج مسجد الباي ضمنها؛ فإن الجزائر لازالت تحتفظ بالكثير منها كمسجد وضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي ومسجد وضريح سيدي محمد بوقبرين بالجزائر وفي وهران مسجد وضريح سيدي الهواري.

والجدير بالملاحظة أن ما يميز قبة مسجد الباي عن قباب مساجد الجزائر عامة هو احتواءها على ضريح المؤسس نفسه على غرار مساجد تونس التي تعود لنفس الفترة. أما الميزة الثانية وهي الأهم في اعتقادنا فتتمثل في أداء القبة لوظيفتين، فمعلوم أن الباي محمد الكبير شيد هذا المبنى ليكون مدرسة ثم ضريحا له ولأفراد عائلته بعد وفاتهم، وفي عام 1208هـ /1794م حولها إلى مسجد، فالغرفة أصلا - حسب تصورنا- كانت بمثابة قاعة للدرس تتقدم بيت الصلاة مباشرة. وقد صارت هذه الغرفة (القبة) ضريحا لمؤسسها ولبعض أفراد عائلته وهي الوظيفة الثانية لها.

مئذنة المسجد: تقع في الركن الجنوبي الشرقي من المسجد، وهي على طراز المآذن المغربية الأندلسية، ذات مسقط مربع يبلغ طول ضلع قاعدتها من الخارج 3.5م بينما يصل ارتفاعها إلى 19م، عند الدخول إليها تواجهنا نواة مركزية عبارة عن دعامة مربعة، ونصل إلى سطح البرج الرئيسي عبر درج صاعد يلتف حول تلك الدعامة يتكون من 53 درجة. ويقوم وسط هذا السطح جوسق مربع المسقط تغطيه قبيبة ثمانية الأضلاع ينتصب في أعلاها وتد ذي ثلاث تفافيخ كبيرة من البرونز يعلوها هلال. وتزدان واجهات الجوسق الأربعة في الأعلى بشريط من البلاطات الخزفية، في حين تتوج جدرانه بشرفات تحتل الأركان. ويتكون البرج الرئيسي من حيث الزخارف من الواجهات الأربعة التي تنقسم إلى أربع قطاعات، الأول منها خال تماما من الزخرفة، أما باقي القطاعات فزخارفها بسيطة عبارة عن مجموعة من العقود المتنوعة.

نفذ بناء هذه المئذنة وفق طراز معماري مألوف انتشر في بلاد المغرب والأندلس والذي يكون قد انتقل إليها من جامع دمشق عبر القيروان واستمر العمل به لقرون عديدة إلى غاية بداية العهد العثماني حيث أخذت في الظهور طرز جديدة.

إن المئذنة في الجزائر خلال العهد العثماني لم تكن تختلف في نظامها المعماري عن مآذن الزيانيين والمرينيين على الخصوص، إذ كانت تتكون من برج رئيسي وجوسق متوج بقبيبة مثبت فوقها وتد يحمل تفافيح. أما من حيث زخرفة واجهات مئذنة مسجد الباي فإن التأثير الزياني والمريني لا يكاد يخفى على العيان لاسيما من حيث استخدام العقود المفصصة، إلا أن هذا التأثير جاء محدودا.

جامع محمد بن عثمان الكبير: أنشئ في المدينة القديمة على يسار ضفة وادي الرحى بنهج النابلسي حاليا، حيث يقول الزياني: "...وبنى (يقصد الباي محمد الكبير) بالموقف الذي وقف به فرسه عند الباب للمواقف مسجدا للصلاة الخمس والجمعة، ويعرف عند الناس للآن بجامع بالناصف..."[28]، استغل غداة الاحتلال كقاعة تابعة للمستشفى الذي بني في عين المكان وطمست بالتالي الكثير من معالمه الأثرية، وأنشئ حوالي بيت الصلاة العمارات والغرف والمخازن وأحيط بالمئذنة التي سلمت من الطمس والتخريب جدار فصلها عن باقي البنايات .

رمم المسجد وافتتح من جديد للمصلين يوم 11 ربيع الأول 1400هـ/ 29 جانفي 1980م كما تدل اللوحة المثبتة عند المدخل.

أما المئذنة فأنشئت عام 1207هـ /1792-1793م من قبل الباي محمد الكبير وهذا ما تطالعنا به الكتابة التذكارية الموجودة بالواجهة الجنوبية للمئذنة.

بيت الصلاة: يأخذ حاليا شكلا مستطيلا قريبا من المربع حيث يبلغ عرضه 23م وعمقه 19م وتقدر مساحته بحوالي 450م^2، يتكون من ست بلاطات عمودية وست أخرى موازية لجدار القبلة، ونلاحظ وسط بيت الصلاة فراغا مسقوفا على غرار مسجد الباي، أما البلاطات فمغطاة بأقبية نصف دائرية ترتكز على عقود نصف دائرية محمولة على دعائم ضخمة يبلغ عددها 23 دعامة مربعة في أغلبها. يتصل بيت الصلاة من ناحية الشمال بميضأة ومسكن وظيفي حديثين، ويقع المدخل الرئيسي قريبا من الركن الشمالي الغربي وإلى جانبه يوجد مدخل ثان، كما يوجد مدخل ثالث يربط بين بيت الصلاة والميضأة، أما النوافذ المفتوحة على الخارج فعددها ثمانية تتوزع على جدران المسجد الأربعة. ويتوسط محراب حديث حائط القبلة فيما نجد في الزاوية الشمالية الشرقية مقصورة الإمام التي تعتبر من الملحقات الحديثة للجامع.

والجدير بالذكر أن بيت صلاة جامع محمد بن عثمان حافظ- وفق اعتقادنا- على تصميمه الأصلي بنسبة كبيرة جدا وهذا بالاعتماد على وصف مقتضب لأحد الكتاب الفرنسيين ومخطط قديم أدرجه في مؤلفه، يعود إلى السنوات الأولى للاحتلال، فالكاتب يشير إلى أن "شكل المسجد شبه مربع طوله حوالي 23م وعرضه 22م وتقدر مساحته بحوالي 500م^2، يتألف من 24 دعامة ذو سطح مستو كانت تقوم في وسطه قبة أزيلت حاليا وأقيم مكانها سقف من الخشب[29]. "ويضيف قائلا: "وعلى بعد أمتار في الركن الشمالي الغربي من الجامع تقوم مئذنة جليلة هي اليوم مصنفة كمعلم تاريخي"[30].

وبناء على ما ذكره الكاتب ونشاهده على المخطط فإن التغييرات مست أكثر ما مست عناصره المعمارية ومنها القبة التي أزيلت من طرف المحتلين لـ" قهوية بيت الصلاة" التي صار قاعة من قاعات المستشفى العسكري[31] ويقوم مكانها اليوم سقف جما لوني، ومنها كذلك المحراب وبعض المداخل التي تكون قد أضيفت أو سدت، إضافة إلى العقود وحواملها التي نعتقد أنها غير أصلية وعلى أقل تقدير مسها تغيير كبير، وقد تم جانب من التغييرات والإضافات خلال فترة الاحتلال لاسيما حينما ألحق بيت الصلاة بالمستشفى الذي أقيم في الموقع وأصبح بالتالي أكبر قاعاته التي ضمت 100 سرير علاجي[32]، بينما تم الجانب الآخر من هذه التغييرات

والإضافات بعد الاستقلال حيث رمم على نحو غير مدروس وأضيفت له بعض الملحقات ومنها مقصورة الإمام والميضأة والمسكن الوظيفي .

ويبدو لنا أن تخطيط جامع محمد بن عثمان ينتمي إلى الطراز المغربي الأندلسي على غرار مسجد الباي وبالتالي فبيت صلاته تخضع أيضا لنظام التخطيط القائم على الأعمدة وذلك على الرغم من وجود تلك القبة التي لم تكن بذات حجم قباب بعض المساجد التي تعود إلى الفترة العثمانية، حيث تشكل فيها القبة المركزية عنصرا جد مهم وتأخذ مساحة أوسع من بيت الصلاة وتحيطها قباب من أكثر من جهة.

ومهما يكن فإن الجزائر تنفرد عن باقي البلدان الإسلامية بتنوع مخططات بيوت صلاة مساجدها، حيث نجد بيوت صلاة ذات بلاطات عمودية على جدار القبلة، وذات بلاطات موازية لجدار القبلة، وذات بلاطات عمودية وموازية في ذات الوقت، إضافة إلى البيوت ذات القبة المركزية والتي ظهرت خلال الفترة العثمانية[33].

مئذنة الجامع: تحتل المئذنة الجهة الشمالية الغربية من الجامع وتتشابه من حيث شكلها ونظامها المعماري مع الآذن المغربية الأندلسية عامة والمآذن الزيانية والمرينية خاصة، لها شكل مربع، طول ضلع قاعدتها 6م، ويصل ارتفاعها إلى 30م تتكون من طابقين، البرج الرئيسي والجوسق، يبلغ ارتفاع البرج الرئيسي حوالي 24م له أربعة وجوه تزخر بالزخارف المتنوعة تتوزع على أربعة قطاعات زخرفية تتشكل من شبكة المعينات إضافة إلى مجموعة من العقود المصمتة المتنوعة الأشكال كالمفصصة والمقرنصة. يفتح باب المئذنة في الضلع الغربي ويقابله مباشرة الدرج الصاعد الذي يلتف حول النواة المركزية وهي عبارة عن دعامة مربعة صماء طول ضلع قاعدتها 1.5م، أما عدد درجات السلم الصاعد فهي 128 درجة.

نصل إلى جوسق المئذنة وسطح برجها الرئيسي عبر باب معقود بعقد نصف دائري. للسطح ممشى ملتف محاط بجدار ينتهي بشرفات مسننة عددها أربعة في كل ضلع، أما زخارف الجوسق فهي الأخرى عبارة عن حشوات مستطيلة قوامها تشبيكة من المعينات قائمة على عقود مفصصة ومقرنصة، يحيط بهذه الحشوات شريط زخرفي من ثلاث جوانب عبارة عن بلاطات خزفية ملونة.

قصر الباي: يقع القصر ضمن المجمع المعماري المسمى بالقصر الجديد[34] الذي يضم أيضا البرج الأحمر الذي بناه أبو الحسن المريني والأبراج الاسبانية والقطاع العسكري ومنتزه ابن

باديس والفندق غير مكتمل البناء. غداة جلاء الأسبان اختار الباي المنطقة الأهم من القلعة الحصينة وهي المنطقة الجنوبية لبناء قصره، حيث يشرف على المدينتين القديمة والجديدة[35] في آن واحد، كما يشرف على الجهة الجنوبية والشرقية، وأيضا على الواجهة البحرية، وقد ورد ذكر هذا القصر في الكثير من النصوص التاريخية؛ العربية والأجنبية، والتي أجمعت على ذكر مؤسسه وهو الباي محمد الكبير فاتح وهران. وفي هذا الصدد يقول صاحب دليل الحيران: " ..ثم بنى في السنة السابعة والمائتين والألف قلة البرج الأحمر..."[36].

أصبح القصر مقر حكم وإقامة الباي محمد الكبير والبايات من بعده طيلة 38سنة، ونظرا لأهمية هذا القصر التاريخية والإستراتيجية اتخذه الاحتلال الفرنسي مقرا للحكام العسكريين وثكنة عسكرية تضم– إضافة إلى العشرات من الجنود – مسؤولي معظم القطاعات العسكرية، وقد أطلق عليه اسم "فندق الفرقة العسكرية ".

بعيد الاستقلال صار مجمع القصر الجديد– بما في ذلك قصر الباي– تابعا لمؤسسة الجيش إلى غاية 1970م، ثم ترك بدون وصاية معرضا لمختلف أشكال النهب والتخريب.

في عام 1990م صنف القصر كمعلم تاريخي وأصبح مقرا للدائرة الأثرية بوهران.

وصف القصر: يمتد القصر من الجنوب إلى الشمال على شكل شبه منحرف، تقدر مساحته بنحو 4000م^2، وهو يتكون من عدة أقسام (أجنحة) هامة وهي الديوان والمبنى المفضل ودار الإقامة ودار الضيافة والحمام، إضافة إلى حديقتين واحدة كبيرة وأخرى أصغر مساحة، وهما تعدان عنصر ربط واتصال بين مختلف الأقسام. نصل إلى هذه الأقسام عبر مدخل غير بارز يتوسط تقريبا الضلع الشمالي للقصر يتقدم حجرة شبه مربعة مفتوحة من جهة الجنوب على الحديقة الكبيرة.

الديوان: يعد أهم أجنحة القصر باعتباره مقرا للحكم وقاعة استقبال ودارا للقضاء، يقع في الناحية الشرقية ويشرف على الحديقة الكبرى، يتقدمه رواق من صفين من الأعمدة الرخامية الجميلة، وعبر مدخل متوسط الاتساع نلج إلى قاعة الديوان وهي ذات شكل مستطيل مساحتها 115م^2، يقوم في منتصفها صف من ستة أعمدة مزدوجة رشيقة من الرخام تحمل عقودا منكسرة متجاوزة. هذا الصف من الأعمدة يقسم القاعة إلى قسمين متقايسين ويضفي عليها الكثير من الانسجام والتناغم. يكسو جدرانها بلاطات من الزليج الأصيل وذلك إلى ارتفاع قامة الإنسان تقريبا، ونجد في أعلى الجدران رسومات جدارية مختلفة، كما زخرف

السقف الخشبي هو الآخر برسومات متعددة تتخللها بعض الكتابات من الشعر على أرضية جصية رفيعة وجميع هذه الرسومات استحدثت خلال العقود الأولى للاحتلال، وطمست بالتالي الزخارف الأصلية.

المبنى المفضل: يحتل هذا المبنى الجهة الجنوبية من القصر مفصولا تماما عن باقي الأجنحة، تقدر مساحته بـ 46م^2، يتكون من ردهة وغرفة وشرفة، نرتقي إليه من الحديقة الصغرى عبر درج صاعد، واجهته مزدانة ببائكة من ثلاث عقود نصف دائرية تستند على عمودين رخاميين. نصل مرورا بردهة مستطيلة الشكل إلى الغرفة التي تمثل الجزء الأهم من هذا المبنى وهي مربعة الشكل تتخلل جدرانها نافذتان وأربعة خزائن جدارية. زينت حوائطها العليا بزخرفة جصية تبدو حديثة، أما سقفها فهو خشبي تكسوه زخارف نباتية وهندسية جميلة تعود كلها إلى الحقبة الاستعمارية، يحيط بهذه الغرفة من الخارج ومن ثلاث جهات شرفة ذات درابزين معدنية حديثة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المبنى يحتل موقعا استراتيجيا هاما من خلال إشرافه على المدينة من كل جهاتها، وتعتبر غرفته أهم الغرف حيث تأخذ اتجاها شماليا يسمح بتلقيها نسمات البحر الرطبة وتمنع عنها هبوب الرياح الساخنة الآتية من الجنوب صيفا، ونظرا لأهمية هذا القسم من القصر اتخذه الباي مبناه المفضل حيث كان يقضي به الكثير من الوقت.

مبنى الإقامة: يحتل الجهة الغربية من القصر قبالة الديوان، تفصل بينهما الحديقة الكبرى، يتربع على مساحة تقدر بحوالي 870م^2، مكون من طابقين كان مخصصا لإقامة الباي وعائلته، أطلق عليه المحتلون الفرنسيون "الإقامة الزرقاء"[37]. تعرض هذا القسم الهام من القصر إلى تغييرات كثيرة أفقدته صورته الأصلية تقريبا وخاصة الطابق العلوي منه بحيث أصبح من الصعب إعادة تصور تقريبي لما كان عليه سابقا. للمبنى مدخل بسيط يتوسط حائطه الشرقي، نصل من خلاله إلى ردهة مربعة مفتوحة مباشرة على صحن مستطيل الشكل، أرضيته مبلطة بقطع مربعة زرقاء ترجع إلى الفترة الاستعمارية، تتوسطه نافورة من الرخام الأبيض تبدو غير أصلية، ويحيط بالصحن من جهاته الأربعة أروقة ذات أعمدة أسطوانية من الحجر الكلسي مزدانة بتيجان بسيطة محلية الصنع، تحمل هذه الأعمدة عقودا نصف دائرية غير متجانسة فيما بينها، تتوزع حول هذه الأروقة 15 غرفة مختلفة المساحة والشكل، وإن كان معظمها يميل إلى الاستطالة، تفتح على تلك الأروقة من خلال أبواب ونوافذ.

إن هذه الأروقة الأربعة الموجودة بالطابق الأرضي والتي تفصل ما بين الصحن ومرافق المبنى لا تتكرر بنفس الشكل في الطابق العلوي باستثناء الرواق الجنوبي الذي حافظ على بعض عناصره المعمارية.

ومهم أن نشير أن عدد غرف الطابق العلوي يصل إلى 17 غرفة مختلفة المقاسات، معظمها حديثة تعود إلى زمن الاحتلال.

الحمام: عادة ما تتوفر القصور والدور في الجزائر خلال الفترة العثمانية على الحمامات، والتي كانت تتكون من غرفة فأكثر، ومنها قصر الباي الذي كان حمامه يقع في الجهة الشمالية الغربية متصلا بمبنى الإقامة، يتكون من أربعة غرف يتقدمها رواق معقود، يمتد هذا المبنى من الجنوب إلى الشمال ويشغل مساحة تقدر بحوالي 350م^2، تأخذ الغرفة المتصلة مباشرة بمبنى الإقامة شكلا مستطيلا، تليها غرفة أخرى لها نفس الشكل، وتعتبر أكبر هذه الغرف. أما من حيث الوظيفة فإننا نرجح أن تكون القاعة الباردة بالنظر إلى موقعها وحجمها وقياسا على تصاميم الحمامات عامة والعثمانية منها خاصة. ومن هذه الغرفة نصل إلى غرفة مربعة، حوائطها ذات سمك معتبر تعلوها قبة مثمنة الأضلاع، ومن دون شك فإن هذه الغرفة كانت تمثل القاعة الدافئة. ومنها ننتقل عبر دهليز إلى الغرفة الأخيرة، وهي ذات شكل مربع تحمل قبة ثمانية الأضلاع، ويبدو من خلال الدلائل المعمارية التي لا تزال موجودة أنها تمثل القاعة الحارة (الساخنة) حيث يتم بداخلها الاغتسال.

ورغم أن هذا الحمام حافظ على طابعه الأصيل ممثلا في تركيبته المعمارية إلا أنه في المقابل فقد معظم مرافقه الضرورية ولاسيما الفرناق (موقد النار) وأحواضه الرخامية ومخزن الخشب وخزانات الماء.

دار الضيافة (الدويرة): يقع هذا المبنى إلى اليسار من المدخل الرئيسي للقصر، يتقدمه رواق من ثلاثة عقود منكسرة متجاوزة يسندها عمودان أملسان، ومن هذا الرواق ندخل إلى غرفة مربعة ذات قبة ثمانية الأضلاع، وبجانب هذه الغرفة نجد غرفا أخرى تختلف من حيث الشكل والمساحة، إحداها نعتقد أن تكون مطبخا لوجود مدخنة ما تزال تحمل آثار الاحتراق.

وكان عادة ما تضم القصور والدور الكبيرة- بما في ذلك الموجودة بالضاحية- مسكنا إضافيا يعرف محليا بـ"الدويرة" يخصص لإقامة كبار الزوار والضيوف[38] أو مسكنا للخدم، وربما أتخذ منه مباتا للجند القائمين على الحراسة- على الأقل بالنسبة لقصر الباي هذا- خاصة

إذا علمنا بأن بعض غرف المبنى تتصل مباشرة بالمدخل الرئيسي الذي يقوم على فتحه وغلقه الحراس.

وكانت الدويرة في قصور مدينة الجزائر ودورها الكبيرة عبارة عن مسكن يتألف غالبا من صحن مركزي محاط بالأروقة التي تتوزع حولها الغرف، إلا أنه أصغر مساحة من المبنى الرئيسي سواء كان قصرا أو دارا كبيرة.

وقد ضم القصر بالإضافة إلى هذه الأقسام المهمة الحديقتان والإسطبلات التي كانت في الأصل إقامات للجنود الأسبان والمكونة من 10 حجرات تقع إلى الشمال من القصر، إضافة إلى الصهاريج والتي تقع إلى اليمين من المدخل الرئيسي مباشرة، وهي عبارة عن خزانات كبيرة للمياه بنيت بطريقة محكمة خلال الاحتلال الإسباني، استغلها الباي للتزود بالمياه بعد أن أجرى عليها الكثير من الإصلاحات والترميمات، ويبقى الإشارة إلى التغييرات والإضافات التي مست قصر بشكل عام ومن ذلك الغرف والملاحق التي بنيت والتي حلت ربما محل بنايات أصلية، حيث لا يجد الباحث أي صعوبة تذكر في تحديدها، خاصة من خلال مواد البناء والتصاميم المعمارية المختلفة والمتميزة عن الأصلية.

الخاتمة: لقد انتشر في الجزائر خلال الفترة العثمانية نمطان مختلفان في تخطيط المساجد؛ أما الأول فينسب للطراز المغربي الأندلسي الذي ساد لفترة طويلة جدا والمستمد أصلا من المسجد النبوي، الذي قام التخطيط فيه على الأعمدة والدعامات في حمل السقف، وإليه نضم مسجد الباي وجامع محمد بن عثمان الكبير، أما النمط الثاني فهو الذي تشكل فيه القبة العنصر الأساسي في التسقيف وهو النمط الذي حمله العثمانيون معهم إلى بلاد المغرب، ويعتبر جامع الباشا من أحسن النماذج التي تمثل هذا الطراز في الجزائر.

أما فيما يتعلق بالعمارة المدنية السكنية فقد حافظ قصر الباي في عموم عناصره على التصميم الذي عرفته قصور ومساكن الجزائر وقسنطينة ومستغانم والمدية وملیانة وغيرها خلال العهد العثماني، والذي لا يختلف عن البيت الإسلامي سواء من الناحية المعمارية أو الفنية.

والأكيد أن الباي محمد الكبير لم يسجل اسمه في صفحات التاريخ فقط من خلال فتح وهران والمرسى الكبير، إنما سجل اسمه أيضا في ميدان العمارة من خلال منجزاته المعمارية التي لا تزال قائمة والتي تضمنت العديد من العناصر المبتكرة، هذه المنجزات الهامة تستحق منا الكثير من الاهتمام والرعاية باعتبارها إرثا حضاريا وتاريخيا يجب المحافظة عليه.

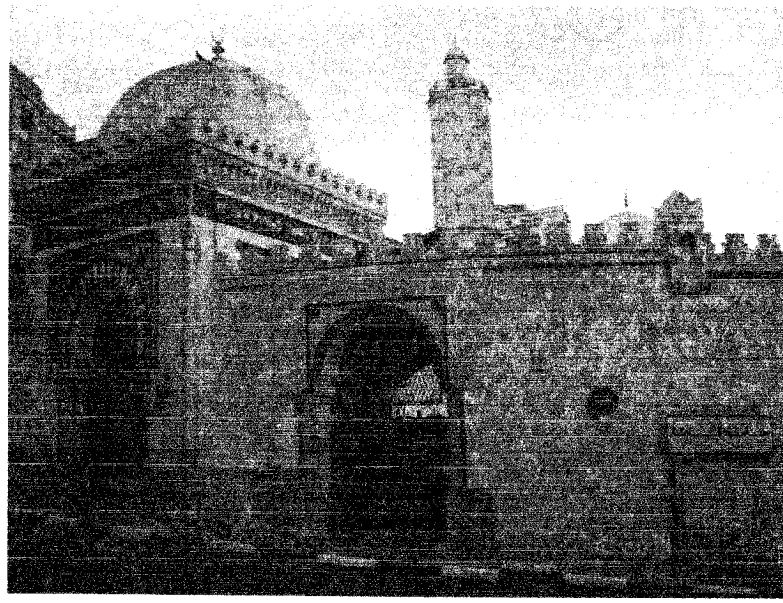

صورة 1: جامع الباشا

صورة 2: مسجد الباي

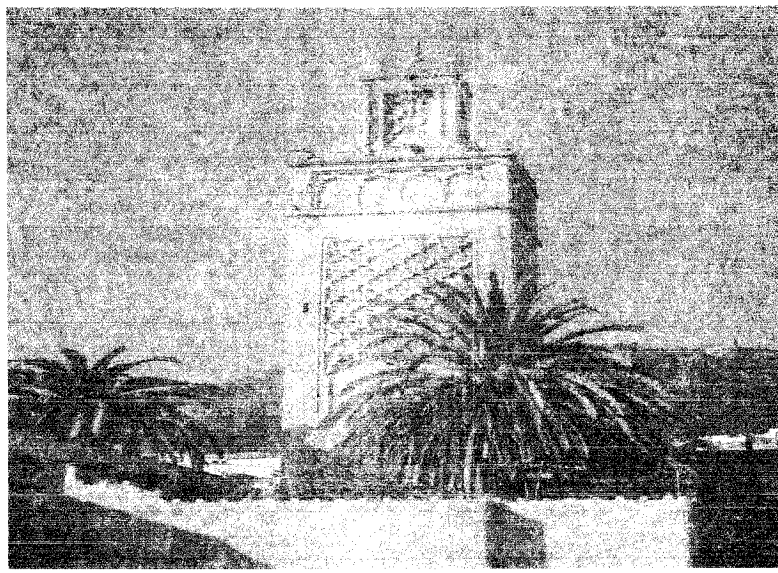

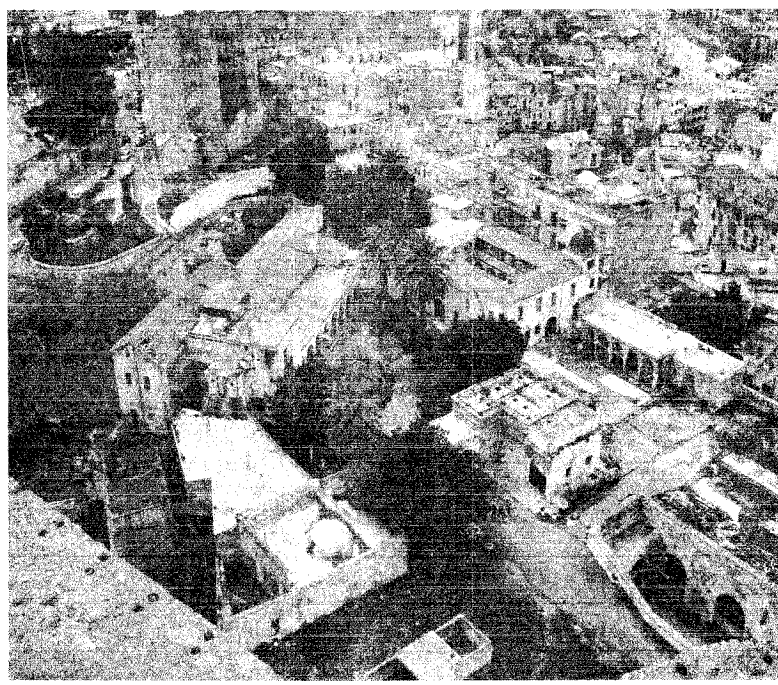

صورة 3: جامع محمد بن عثمان

صورة 4: قصر الباي

الهوامش:

1- المزاري آغا بن عودة اسماعيل، طلوع سعد السعود في أخبار وهران واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحي بوعزيز، دار الغرب الجزائري، بيروت 1990م، الجزء الأول، ص 290.

2-ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص125 و126.

3- هي قبائل مشهورة عربية الأصل، موقعها بين غليزان وتاهرت، كان الأتراك يعينون لها قائدا مميزا لقوتها وخطورتها. - أنظر: - بن عتو بلبروات، الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري: 17779-1797م، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2002م، ص65 و66.

4- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص125.

5- ابن رقية التلمساني محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلاني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق: سليم بابا عمر، مخطوط منشور بمجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد 3، 1967م، ص31.

6- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1990م ص.ص 196-199.

7- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر؛ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص284.

8- الزياني، المصدر السابق، ص 205 و206.

9- المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 1976م، ص 526.

10- الزياني، المصدر السابق، ص 199.

11- نفسه، ص 204.

12- نفسه، ص 204-205.

13- أنظر: - الراشدي، المصدر السابق، ص ص 132-135.

14- الزياني، المصدر السابق، ص 203و204.

15- مطروح أم الخير، تطور المحراب في عمارة المغرب الأوسط خلال العصر الإسلامي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1994م، ص ص 86-117.

16- نفسه،ص 13.

17- نفسه،ص 12.

18-Grabar, O. La formation de l'Art islamique, traduit: Yves Thoraval, Flammarion, Paris, 2000, P.163-166.

19 - Marçais,G- L'Art en Algérie, Imprimerie algérienne, Alger, 1906, P. 99.

20- المزاري، المصدر السابق، ص 294.

21- Marial. W. « La Mosquée de Sidi -Mohamed el-Kebir », In B.S.G.O. 1893, P.18.

22-Bourouiba, R.-Apports de l'Algérie à l'architecture religieuse araboislamique- O.P.U- Alger, 1987, P.31.

23- نفسه ص 66.

24- Golvin,L, Essai sur l'Architecture religieuse musulmane- Tome1- Généralités, Edition Klincksieck, Paris- 1970.,P. 46

25- Bourouiba, R.- Apports de l' Algérie- P. 60.

26- Golvin,L, Essai sur l'Architecture religieuse musulmane, Tome 1, P.45.

27-أنظر: - الزياني، المصدر السابق، ص 203.

- المزاري، المصدر السابق، ص.294

28- الزياني، المصدر السابق، ص 202.

29- Sandras,G, Histoire des hôpitaux d'Oran, Oran, 1910, p.91

30- نفسه، ص 91.

31- نفسه، ص 96.

32- نفسه، ص 102.

33- Bourouiba- Op.Cit-P.31.

34- القصر الجديد هي التسمية الاسبانية له، وما تزال متداولة إلى اليوم، أما المسلمون فكانوا يسمونه أحيانا قصر الأمحال (برج اللقالق) وأحيانا البرج الأحمر، وهما تسميتان عربيتان.

35- يقصد بالمدينة القديمة الأحياء التي بنيت قبل 1792م على الضفة الغربية من وادى الرحى، والتي أتى الزلزال على معظم مبانيها، أما المدينة الجديدة فهي التي شرع الباي محمد الكبير في بناءها على الضفة الشرقية من وادي الرحى.

36- الزياني، المصدر السابق، ص 202.

37- يعتقد البعض أن الصحن كان عبارة عن حوض مائي كبير تربى بداخله الأسماك، إلا أن هذه المعومة غير الموثقة لم نأخذها بعين الاعتبار. وربما سمي هذا المبنى بـــ"الإقامة الزرقاء" نظرا للبلاطات الزرقاء التي مازالت تغطي أرضية الصحن والتي ترجع بدون شك إلى فترة الاحتلال.

38- Golvin, L, Palais et demeures d'Alger à la période ottomane, O.P.U.1988.P.79-127